قصة واقعية

للكاتب الانجليزى بنيامين دزرائيلى
بقلم الاديب محمد عبد الفتاح محمد

كنت أرفل فى أثواب الصحة والعافية عند ما كنت صبياً ، وكنت إلى هذا خيالىّ الطبع أهيم بالتفكير والتأمل . لذا كان من دأبى أن أتسلل فى غفلة من أترابى الصغار إبان لهوهم ولعبهم إلى غابة ذات ظل ظليل ، وهدوء شاعرى جميل ، وأنصت إلى نعيب الغربان ، وشدو الطيور ، التى يبدو أنها كانت تهيم بالعزلة هيامى بها

وطال بى البقاء ذات مساء . وحذرتنى ساعة الكنيسة القريبة أكثر من مرة من تأخرى ، ونبهتنى إلى وجوب العودة إلى مثواى . كان السكون مخيما والصمت شاملاً حول تلك الطبيعة الساحرة ، لذلك لم أشأ أن أعكر صفوها بأقل حركة تبدر من جسدى المستقر الساكن

وزعنى من تأملى شبح أنثى ظهر أمام ناظرى فجأة ، امرأة هيفاء طويلة القد راحت تسدد نحوى النظرات الحزينة الحائرة . كانت فى أثواب بيض من الرأس إلى القدم ، فى هيئة لم أرها قط من قبل؛ وكان فستانها طويلاً فضفاضاً ، له حفيف كان يسمع فى أثناء غدواتها وروحاتها بين الأشجار الشجراء كأنما قد صنع من حرير غال ثمين . وأحسست قلبى يشتد وجيبه كأنى فى دور النزع والاحتضار . وكان فى مكنتى أن ألتمس للفرار سبيلاً ، بيد أنها كانت جميلة فتانة ، وجهها يشع النور ، وأنفاسها تَبُخُّ العطر ، وقامتها تبعث الإكبار والإعجاب ، وهيئتها تفيض على المكان روعة وجلالاً ، وتنفث فيه سحراً وجمالاً . لذلك لم أحاول أن أفر منها ، أو أنجو من الرعب الذى بثته فى جوانحى وحواسى . كان شعرها الكستنائى مصففاً حول وجهها فى أسلوب رائع خلاب إلا بضع خصلات راحت تنوس على نحرها العاجى المنور . كانت تبدو صورة رائعة خلقتها ريشة فنان صناع ، أكثر مما تبدو امرأة ذات روح . وأغمضت عينى فى قوة وعنف ، وعند ما فتحتهما كانت قد اختفت

ولست أدرى لم أحجمت عندما عدت إلى مثواى عن التحدث فى أمر هذا الشبح الجميل كما لست أعلم لِمَ دأبت على الذهاب إلى تلك البقعة — يساورنى مزيج من الخوف والأمل — لعلى أراها ثانية . واستمرت تحضر حتى فى أثناء العواصف الهوج ، والمزن الهتون . ويبدو أنه لم يكن لها أى سلطان عليها ، فما كان المطر يمسها رذاذه ، وما كان الريح يزعجها هبوبه ، كانت تنظر إلىّ نظراتها الحلوة ، ثم تمر فى صمت كالخيال . وكانت مرة بقربى نكاد — أنا وهى — نتماس ، فهبت خصلات شعرها ومست خدىّ ؛ ومع ذلك لم أستطع أن أتحرك أو أكلمها .

وسقطت مريضاً محموماً . ولما أن تماثلت للشفاء سألتنى أمى ، وألحفت فى السؤال ، عن تلك السيدة الطويلة التى كنت أهذى بها أثناء الحمى الشديدة

ولا أستطيع أن أصف لك اليأس الذى منيت به

فى خيالى ، والخيبة التى أسفرت عنها آمالى عند ما علمت أن ذلك لم يكن شبحاً من الأشباح ، ولا طيفاً من الأطياف ، وما كان إلا امرأة حية من لحم ودم ، ليست شابة صغيرة برغم نظراتها الحلوة الفتية . إذ أن الحزن العميق الذى أترع نفسها ، والصدمة الشديدة التى منى بها قلبها ، أبقيا على جمالها وحسنها .

عند ما ارتد جيش الثوار مدبراً عقب هزيمته المنكرة ، تخلف فى هذه الغابة التى كنت بها أهيم ، ضابط قعدت به جروحه الأليمة عن متابعة رفاقه ، فسقط عن جواده وأسلم نفسه للموت . وأعتر الحظ عليه ابنة السير هنرى ... فحملته بمعونة خادم أمين إلى قصر أبيها ، وكان السير هنرى من أنصار الحكومة ، بيد أن حال الضابط الجريح استدرت عطفه وإشفاقه ، ودلت جروحه على بسالة لا تنكر وشجاعة جديرة بالإعجاب . ودافعت ابنة السير هنرى عن الضابط الشاب دفاعاً حاراً ودموعها هواطل ، وأعلنت أن الواجب يحتم عليهم حمايته والتستر عليه والعناية به . وقامت هى على تمريضه (إذ ماتت أمها منذ بعيد) أسابيع عديدة . وراقبت فى لهفة أول نظرة سددها الضابط الواهن الضعيف إلى ممرضته الصغيرة معبراً عن شكره وامتنانه

وأحسبك مدركاً أيها القارئ دون أن أخبرك أنا ـ وقد اندملت جروحه ـ تلك اللحظات السعيدة التى كانت تنقضى فى القراءة ، وفى التغنى بصوت خافت لطيف ، وفى التوقيع الجميل الأخاذ على القيثارة ، وفى جمع تلك الزهور التى تقعد بأسرى جروحه عن جمعها لنفسه ، وكيف كانت تمر الأيام هادئة جميلة ، مترعة بالغبطة والسعادة لعودة الصحة وحلول الشفاء يسودها الهدوء والراحة اللذان يشملانه

لأدع كل ذلك لأتحدث لك عن يوم لم يكن ، مع كونه أجمل الأيام وأصفاها ، فى جمال أو صفاء نظرات العذراء الصغيرة وهى تتحدث بوجه مستبشر منطلق عن الوليمة التى ستولمها ابتهاجاً بشفاء الضيف الكريم . قال الشاب :

— لقد حان الوقت يا سيدتى أن يقص عليك هذا الضيف الشاكر ، أسير فضلك ومعروفك ، كل قصته ، وأن يحدثك عن شخص عزيز عليه ، سيعمل معه جاهداً على إيفائك حقك من الشكر . هل لى أن أطلب إليك يا سيدتى الكريمة ، فتكتبى عنى رسالة صغيرة ؟ وقد لا أعدم فى هذا الوقت الخطير العصيب وسيلة توصلها إلى صاحبتها

فأخذت تفكر : « لأمه دون ريب » ثم سارت إليه بخطوات خفيفة وقلب خفاق ، وجلست بجواره وسألته أن يملى رسالته . بيد أنه لم يكد يقول : « زوجتى العزيزة » ، ويرفع رأسه إليها لتطلب المزيد حتى وجد أمامه تمثالاً شاحباً ممتقعاً ينظر إليه نظرة يأس قاتل ، ثم يسقط عند قدميه كجثة هامدة :

ولم تشع هاتان العينان منذ ذلك الحين السعادة والغبطة ، ولم تجب نظراتهما الحيرى الزائغة على أسئلة أبيها الملحة اللهفانة

وعاشت بقية عمرها على الحال التى رأيتها عليها رقيقة حلوة دائماً ، ولكن لم يعد الرجل الذى تسبب لها فى ذلك

وحرصت حتى أيامها الأخيرة ، على زيارة تلك البقعة التى رأت فيها الضابط الشاب أول مرة ، مرتدية تلك الثياب التى قال إنها تناسبها تماماً

محمد عبد الفتاح محمد